المبادلة التفاعلية في القرآن الكريم ـمقاربة تداوليةـ

Interactive exchange in the Holy Quran - a pragmatic approach

د. حنيفة بداش
جامعة محمد البشير الإبراهيمي (الجزائر)
مخبر الثقافة الوطنية في الأدب الجزائري الحديث والمعاصر
البريد الالكتروني: hanifa. badache@univ-bba. dz

تاريخ الاستلام: 2022/11/17 **تاريخ القبول للنشر:** 2023/08/03 **تاريخ النشر:** 2023/12/31

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:

يروم هذا البحث الوقوف على الخصائص التداولية للحوار، ومنها الولوج إلى أنواعه المختلفة لنسلّط الضّوء على المبادلة على وجه الخصوص، والجانب التّفاعلي لها داخل البنية الحوارية ككل، ودور أنواع المبادلة في التناسل الحجاجي، لنقف بعد هذا المسار التحليلي على أهمية هذا الطرح التداولي والحجاجي لـ "جاك موشلار"(Jacques Mocshler)؛ حينما أحاط الحوار بأشكاله المختلفة بأدوات تحليل خاصّة ومن زاوية مغايرة، وهذا الأخير استقطب أهم عنصر تداولي وهو (التفاعل)، علما أنّه انطلق من الحجاج الخطابي وبرؤية تداولية. مما مكّنه من الظّفر بكل خصوصيات الخطاب وتفاصيله وأشكاله.

فباتت المبادلة مسرحا للتّبادل التّواصلي التّفاعلي بين المرسِل والمرسَل إليه. في الخطاب عامّة وفي النّص القرآني على وجه الخصوص؛ إذ تعكس تداولا مرتبطا بسياقات التّخاطب المتنوّعة، وهي سياقات شديدة الخصوصية. فسلّطنا الضّوء هنا على صيغة ووظيفة المبادلة في القرآن الكريم تداولية كانت أم استدلالية. لنثبت في النّهاية أهمّيتها في شكل خطابي معيّن (الحوار)، ودورها في تحقيق الانسجام بين المتخاطبين؛ كونها تستند إلى الخلفيات المشتركة بينهم، وبين الوحدات المشكّلة للنّص.

الكلمات المفتاحية: المبادلة؛ التفاعل؛ الحوار؛ التداولية؛ الحجاج.

Abstract:

This research aims to identify the pragmatic characteristics of the dialogue ،then to have access to its different types ،and to shed light on the exchange in particular. Also ،it aims to shed light on the interactive aspect of the exchange within the dialogue structure as a whole ،and on the role of its types in the argumentative intercourse.

After this analytical path ،the importance of the pragmatic and argumentative proposition of "Jacques Mocshler" is treated; when he surrounded the dialogue in its various forms with special analysis tools and from a different angle. Jacques Mocshler attracted the most important pragmatic element ،which is (interaction) ، knowing that he started from the discourse argumentation and with a pragmatic vision. This enabled him to capture all the peculiarities ،details and forms of the discourse.

The exchange became a stage for the interactive communicative exchange between the sender and the addressee ،in discourse in general and in the Quranic text in particular. It reflects a pragmatic exchange related to the diverse contexts of discourse ،which are very specific contexts. This research sheds light here on the formula and function of exchange in the Noble Quran ،whether it was pragmatic or deductive.

Finally ،it proves its importance in a specific form of discourse (the dialogue) ، and its role in achieving harmony between the interlocutors; it is based on the common backgrounds between them and the text-forming units.

key words: Exchange; Interaction; Dialogue; Pragmatics; Argumentation

مقدمة:

باتت الحاجة إلى الحوار بمكوّناته المختلفة ضرورة لابدّ منها؛ خاصّة بعد توسّع رقعته البراغماتية ومجال استعماله: (السّياسة، الإشهار، المسرح. . .). فكان لزاما على الباحثين المشتغلين في هذا المجال استقصاء أهمّيته وفعاليته ومكوّناته قصد تعزيز وظيفته ومكانته التّخاطبية.

وقد مكّن التّحليل التّفاعلي للحوار من الوقوف على الميكانيزمات المتحكّمة في مراحله من البداية حتى النّهاية، من خلال كشف آلياته ومكوّناته (المبادلة على وجه الخصوص)، ضمن منظور تفاعلي كوْن الحوار يطرح مستويين: لساني وخارج – لساني بكلّ تفاصيله المقامية، وهذا التّفاعل التّواصلي يتضمّن خصائص تداولية تتميّز بالتّفاعل التّواصلي باختلاف السّياقات و تعدّدها، وخصائص تواصلية، وخصائص استدلالية، والبعد الأخير هو الذي يحيل إلى الخصائص التّفاعلية المتضمّنة في المبادلة.

لتلتفّ كلّ هذه الجزئيات حول إشكالية رئيسة وهي: ما هي أدوات التّحليل التي أضافتها التّداولية للتّفاعلات الحوارية بمختلف أشكالها؟ وما هو دور المبادلة باعتبارها مكونا حواريا في تحقيق تفاعل تواصلي في الحوار القرآني؟.

ولجمع جزئيات هذا العرض لابدّ من منهج نستند إليه في إتمام البناء، فكان المنهج الوصفي هو القالب الذي يحوي هذا الطّرح؛ للحاجة إلى تقصّي وتتبّع واستقراء تموضع بنى المبادلة داخل الخطاب من (استفهام، نفي. . .)، والمنهج التداولي حضر لدواعي التحليل التفاعلي.

الحوار مقاربة مفهومية

يكتسي الحوار (dialogue) أهدافا فكرية وتوجيهية كثيرة تجمل في هدفين: إثارة الأفكار الجديدة، ثم تنوير الرّأي العام وتوجيهه. فالحوار ينشد التأثير على المنظومة المعرفية التي تكون سابقة عن الحوار بهدف تغييرها بإضافات تحليلية جديدة، وبرؤى تقويمية وتأويلية غير معهودة (نظيف، 2016، الصفحات 64-65).

نلاحظ أن التفاعل التواصلي يشكل ماهية الحوار، فلا يخلو أي حوار منه، وإضافة العنصرين إلى بعضهما يعطيهما حمولة جديدة ليدلّا على جلّ العناصر التي تفيد المشاركة الحوارية، في إطار تفاعلي تساهم فيه كل مكوّنات الحوار اللّسانية والخارج-لسانية (نظيف، 2016، صفحة ص15).

فعملية التواصل (Interaction) والحوار تستطيع أن تبلغ هدفها في تحقيق المراد نحو: (إغناء موضوع ما)، فالحوار فعالية إنسانية اجتهادية لا يستطيع أي تنظيم اجتماعي التخلّي عنها؛ لما يتيحه من إمكانات: نفسية، ومعرفية، وثقافية تسمح بتقريب المسافات بين المتحاورين من خلال استعمال المعارف (عشير، 2007، الصفحات 42-43).

واجتمعت هذه المفاهيم في تعريف "جاك موشلار"(Jacques Mocshler) للحوار: " كونه نوع من التّفاعل اللّفظي يلزم فيه المتخاطبون بأن يحاولوا أن يسجّلوا نقاطا على بعضهم البعض، وأنْ يفاوضوا للوصول إلى حلول أوعدم الوصولmoeschler) ، (1985.

أو هو: " نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين، ويتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة، فلا يستأثر أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن اللخصومة والتعصب ". فيصل بن عبده قائد (عبدة، 2003، صفحة 13). وقد حدد "موشلار" قواعد الحوار في نقاط ثلاث:

- القواعد التفاعلية(interactive) : وهي مبادئ ذات طبيعة اجتماعية.

- القواعد البنوية (structurelles): وهي التي تحكم جريان المحاورة، وتتنامى بالتّأويل المتبادل، وبالبناء التسلسلي.

- قواعد الإشراط التسلسلي: وهو ما يحدّد مقدار التّنظيم المحكم للمتتالية الحوارية؛ أي طابعها اللاّحم والمنسجم (cohérent et cohésif) (اللطيف، صفحة 113).

- مكونات الحوار:

المبادلة (l'échange)

- المداخلة (l'intervention)

- فعل اللغة/الكلام (l'acte de langage)

ونسلط الضوء في هذ المقام على المبادلة (التبادل) كونها موضوعا لهذا المقال، فيطلق على التّفاعلات التّي قد يكون المشاركون فيها متلفّظين مشاركين، علما أن تلفّظاتهم يحدّد بعضها البعض الآخر نحو: المراسلات، المناقشات، في الإذاعة، الأحاديث. . . ويستثنى من هذا النوع من الخطاب الأثر الأدبي، والمحاضرة الأكاديمية، وخطاب الرئيس نظرا لعدم وجود التّداول على الكلام (monologal/monologique).

نستنتج أن لفظ التبادل يستعمل للدلالة على أحد مستويات تحليل التفاعل؛ وهي الوحدة الحوارية الدُّنيا بالنسبة لـ:

أ- كيف حال بول؟

ب-جيّد، جيّد شكرا. (مانغونو، 2008، صفحة 43).

استناد إلى ما قدّمه "جاك موشلار" في مشروعه الحجاجي ذاك حول الحوار. نودّ استنطاق هذا النشاط التفاعلي في الخطاب القرآني؛ كونه المرعى الخصب لمثل هذه التفاعلات الحوارية في إطار التّفاوض والإقناع. . . وهلمّ جرّا. مع التركيز على نشاط حواري بعينه وهو(المبادلة) كما ذكرنا سابقا.

النّشاط التّفاعلي للمبادلة داخل الخطاب القرآني وأنواعها

وأوّل نموذج نبدأ به قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ البقرة: 30 -33

بعد أن أخبر الله تعالى الملائكة بجعل خليفة في الأرض كان جوابهم (قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ) الملاحظ هنا هو حذف الرابط (الفاء) خلافا لما جرت به العادة، والتّقدير(فقالوا)؛ إذ فصل الجواب ولم يعطف بالفاء وهي طريقة متّبعة في القرآن الكريم (عاشور، 1984، صفحة 401).

نستنتج من التحليل أعلاه أهمّية التنويع في أساليب القرآن الكريم، وكذا تنوع التراكيب اللّغوية المختلفة مراعاة للمقام، فهذا مقام محاورة وهو مقام تفاعلي، لذا فهو سياق ضيّق لا يتّسع للعطف أو التراخي أو الترتيب، ممّا استدعى حذف الرّابط. فجوابهم وردّهم انفعالي سريع يصوّر استغرابهم كما رفضهم لهذا القرار، والدليل على ذلك استفهامهم المحكي من كلام الملائكة وهو محمول على حقيقته مضّمن معنى التّعجّب والاستبعاد (عاشور، 1984، صفحة 402).

والتعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية (الزمخشري، 2009، صفحة 70).

فكان الرّد قوله تعالى: (قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ). وهو جواب جار على المقاولة في المحاورات؛ أي أعلم ما في البشر من صلاح أو فساد. (عاشور، 1984، صفحة 406). فبقوله هذا أغلق باب الحجاج وأنهاه مع الملائكة، بعدما أعلن سعة علمه وأنّه يحيط بما لم يحيطوا هم به علما.

نحدد بعد هذا المسار أنواع المبادلات الحوارية الواردة في الخطاب أعلاه حسب تقسيم "جاك موشلار"، بعد استنطاقها اعتمادا على التفاسير-طبعا- كما نحرص على تبيين أهمية التفاعل في المبادلة ومن هذه المبادلات نذكر:

المبادلات الاعتراضية: (Enchâssés) وهي مبادلة صغرى تندرج ضمن مبادلة أخرى، وهي من أكثر المبادلات شيوعا.

وباعتبار هذا الخطاب محاورة فقد تخلّلته مبادلات اعتراضية –بخلاف النمط البسيط لتنظيم المبادلات فهو نمط المبادلات المتتابعة- ومن المبادلات الاعتراضية الواردة في هذه المحاورة: قوله ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ ﴾ وقوله تعالى:﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة:30 .

وأكثر ما يميز هذه المبادلة الاعتراضية هو أن تكون تمهيدا للجواب أو تأجيلا له بالتّدقيق في سؤاله. وهذا ما بدا لنا من خلال هاتين المبادلتين فاستحقتا اسم الاعتراضية. فقوله﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ اعترضت عدة مبادلات في هذه المحاورة منها: الإخبار بجعل خليفة في الأرض، إلى غاية تأكيده بالحجة والبرهان على علمه الواسع(الغيب) فقد تفرّد بذلك ولا يشاركه فيه أحد.

وكذا الأمر بالنسبة للمبادلة الاعتراضية الثانية﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فبعد النظر في ردّ الملائكة والسؤال التعجّبي ذاك جيء بهذه المبادلة؛ فإخبارهم بعلمه هذا تمهيد لحجج أخرى تتلى عليهم بعد هذا الاعتراض، ومنها قوله﴿ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ فهي استحضار للمبادلة الاعتراضية الثانية﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وجواب ل(ما) مرّ من الجواب الإجمالي، إلا أنه جاء على وجه أبسط من ذلك وأشرح –على حد تعبير الألوسي- (الألوسي، 1994، صفحة 229)

الملاحظ أنّ ترتيب المبادلات في هذا المحاورة ليس كيفما جاء واتّفق؛ بل لضرورات الرّدّ والتّحاجج والسّياق. فالغرض والهدف من الخطاب عامّة هو الذي أملى هذا التتابع والتعاقب والتسلسل حتى التناسل للمبادلات خدمة لغرض واحد (تعمير الأرض وإثبات علمه الواسع).

بناء على هذا فقوله﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ تمهيد لجواب وتأجيل له بعد التدقيق في سؤال الملائكة. تبعا لخصائص المبادلة الاعتراضية. فاستفهام تعجبي انفعالي سريع قوبل بِردّ من جنسه (سريع مجمل) لا تفصيل فيه، فالسّياق كما ذكرنا آنفا ضيق لا يتّسع للتفصيل إلا بعد هذا الاعتراض عساه يضع حدًّا للانفعال الحادّ ذاك، ثم يعرض جلّ جلاله بقية البراهين على علمه الواسع ومن ذلك (تعليمه آدم الأسماء كلّها، لا يملك مفاتيح الغيب إلاّ هو) والأمر نفسه بالنسبة للجملة الاعتراضية الثّانية.

ونمثّل لذلك بهذه الخطاطة:

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾

↓

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ ← مبادلة اعتراضية أولى

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ← مبادلة اعتراضية ثانية

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ← مبادلة اعتراضية ثالثة

والأمر نفسه بالنسبة للمبادلة الثالثة فقد توسطت عدة مبادلات (الآية /31-33)، والغرض من اعتراضها هو إثبات عجزهم (كون الملائكة لم تنبّئه بالأسماء) أولا، وإقرارهم بذلك ليأتي بعدها استكمال الحجج وعرضها بما يتماش والغرض. فاستنطقهم ليفحمهم بعدها بحججه التي تثبت علمه المطلق. فقد تبيّن لنا التزاوج بين البنية العامة للخطاب وغرضه الإقناعي.

كما تجلّى لنا التفاعل بين المتحاورين، فيكاد يكون الرّد من جنس القول واتّضح ذلك في ردّه تعالى السّابق على الملائكة -وُضِّح ذلك أعلاه- ونستحضر هنا فكرة المواضع (topiques)، لأنّ الظّفر بها يعني امتلاك الجذور التي يتولّد عنها القول، مما يتيح تأطيرها ضمن مسلك معيّن تقصد إليه الحركة الحجاجية. فهي عملية استحضار ما يقتضيه المراد والغاية الإقناعية، فالعملية استحضارية وإبداعية. (اللطيف، صفحة 50)

إذ زادت هذه الفكرة من الشّحنة التّفاعلية للخطاب؛ فاستنكار الملائكة لخلافة آدم في الأرض مظنّة للإفساد فيها، بل حتى قبل معرفتهم بآدم ووجوده؛ وذلك لعلم قد علموه من الله بوجه من الوجوه. (الشوكاني، 2007، صفحة 44). فالأرضية التي ينطلق منها كل من المرسِل والمرسَل إليه تشكّل قاعدة تخاطبية بامتياز، لأن السّياق يلعب كبير الأثر في فهم المتحاورين على بعضهم البعض، مما يخلق انسجاما وتناغما بينهم في الأخذ والرّد، وإكمال الحجاج إلى نهايته.

لقد تحقّق الحجاج في هذه المبادلة-الاعتراضية الأولى قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ عبر ظاهرة التوسيع (expansion)؛ ذلك أن التّفاعل الحجاجي يمكِن جريانه تأرجحا دائما بين قوّتين متناقضتين: قوّة جاذبة (الإغلاق)، وقوّة طاردة (المواصلة). فالإغلاق يتحقق بالاتّفاق (Accord)، بينما التوسيع تحققه المفاوضة (Négociation). إذ نلاحظ ورود الصّورتين معا في هذه المبادة.

كما نلاحظ قوة طاردة في هذه المبادلة، فعدم سكوت الملائكة وإفصاحها الصّريح والمباشر عن رأيها عندما عُرض عليها أمر (جعل خليفة في الأرض) وحقّقت هذا عن طريق الاستفهام التعجّبي المجرّد، فكأنّهم يطلبون استكناه ما خُفِي عليهم من الحكمة الباهرة، وقيل هي للاسترشاد. . . (الدرويش، 1992، صفحة 57). فالاستفهام في حدّ ذاته ومهما كان نوعه يؤدّي إلى تناسل الخطاب وتكوثره، إذ يفتح مجالا للمحاورة والمبادلة وكذا التفاعل. فردّ الملائكة غذّى الحوار وأوصل التّفاعل والمُحاجّة إلى نهايتها. لما ولّده من نقاش (حجاج) فالمحاجج يسعى إلى إعلان موقفه، ويحدّد هذا الموقف بقرائن ومواد اختيارية تحضر في السّياق، وتقود عملية الاستنتاج المتّصلة بالسّؤال. (الدريدي، 2011، صفحة 141).

الحجاج بالتّوسيع في المبادلة:

وفي هذه المبادلة اجتمع نوعان من التّوسيع:

أ-توسيع عبر التناقض: ويعود هذا النوع لاختلاف المتلفظين (اللطيف، صفحة 116). وتجلى ذلك في مخالفة الملائكة لحكم وقرار الله تعالى عن طريق الاستفهام التعجّبي دائما، وهذا ما أدّى إلى تناسل وتنامي وتسلسل المبادلات داخل هذه المحاورة.

ب-التوسيع بإعادة الإطلاق: ويتحقق عن طريق تقييم سلبي لحصيلة جواب قدّمه أحد المتحاورين، فالحجاج غير المرضي يقود إلى حجاج مضادّ يرجئ إغلاق المداخلة. (اللطيف، صفحة 117).

وهذا ما استنتجناه من خلال التحليل أعلاه (فردّ الملائكة هو النقطة المحورية في هذه المبادلة).

لننتقل الآن إلى نوع آخر من المبادلات وهي:

المبادلة الرأبية (: Réparateurs)وفكرة الرّأب تنبني على مبدأ ترميم انتهاك ألحِق بمجال الآخر، وتصحيح أيّة إساءة مجالية مسَّتهُ، وهذا الفعل التّرميمي يضطلع بوظيفة إقرار التّوازن التّفاعلي (pertinence communicative) بين المشاركين في المبادلة ويمكّنها من المواصلة. (اللطيف، صفحة 111). وتجسّدت هذه المبادلة في قوله ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾. وقد لعبت هذه المبادلة دورا في تحقيق التوازن التفاعلي بين الله تعالى والملائكة، فبعد التحاور مع استعمال حجج عدّة تبيّن لهم قدرة الله وعلمه خاصّة بعد ما علم آدم الأسماء كلها ونبّأهم بها، فما كان جوابهم بعد هذه الحجج التّي اقتنعوا بها إلاّ أن قالوا (سبحانك). أي بحمده نسبّح ونقدّس (الألوسي، 1994، صفحة 224) فهذا الفعل التّرميمي يضطلع بوظيفة إقرار التوازن التفاعلي داخل المحاورة؛ ممّا حقّقه من اتّفاق وانسجام حجاجي بين الأطراف المشاركة في الخطاب، وهذا النوع من الملاءمة التّفاعلية يعتبر من أنواع (الاتّفاق بوصفه شرطا لإغلاق المبادلة) (اللطيف، صفحة 117). وبهذه المبادلة أُغلِق الحجاج بين الطرفين بعدما خضعت الملائكة لحكم الله.

ولنأخذ نموذجا آخر من سورة النمل كي نضع أيدينا مجدّدا على خصائص المبادلات القرآنية

-المبادلة الإقرارية: وهي التي تصادق وتثبت تناسب مبادلات فتح أو إغلاق التفاعل أساسا، وتتكون من مداخلات لها وظائف تعبيرية، وغالبا ما تغلق هذه المبادلات الإقرارية بتبنّي المخاطَب لسلوك مماثل لسلوك المتكلّم، وهذه المبادلات محكومة بمواضعات التّعامل بين الأفراد وبالروابط الاجتماعية. (اللطيف، الصفحات 110-111) إذ يعتبر كلّ تفاعل تبادلا بما فيه المحادثة، فالتّبادل هو العملية الأوّلية قبل تحديد القيمة. (بناني، 2010، صفحة 135)

ومن أمثلة هذه المبادلة في القرآن نذكر قوله تعالى في سورة النّمل:

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤﴾النمل: 32-34

لدينا المبادلة الإقرارية في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣﴾إذ فوضوا الأمر إليها لعلمهم بصحة رأيها، وقوة عقلها، فهم سامعون مطيعون لأمرها. (الشوكاني، 2007، صفحة 1079).

فقلنا سابقا أن المبادلات الإقرارية محكومة بمواضعات التّعامل وطقوسه بين الأفراد، وهذا واضح في هذه المحاورة فلو لم يكونوا على علم بحكمتها ودهائها لما سلّموا لها الأمر، وهم أولوا خبرة في ميدان الحرب فهم أدرى بخطورتها، لكن قربهم من الملكة واحتكاكهم الدائم بها مكّنهم من معرفة أفكارها لذا وافقوها وساندوها فيما أقرّته من حكم نهائي انطلاقا من فكرة الموضع (خلفيات عامة) بين المتحاورين. وهذا الاتّفاق هو ما حقّق التّوازن التفاعلي بين الطرّفين مما يؤدي حتما إلى إغلاق المبادلة؛ فالاتفاق شرط الإغلاق. فلم يعد هناك قضيّة للنّقاش أو التفاوض. فلم يعد هناك داع لإكمال المحاجّة.

والأمر نفسه بالنسبة لقولها (وكَذَلِكَ يَفْعَلُو)؛ أي مثل ذلك الفعل يفعلون؛ أي فالوقف على قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ ﴾وقف تام فقال الله تعالى تحقيقا لقولها (وكذلك يفعلونَ). (الشوكاني، 2007، صفحة 1079). فالوقف التام هو ما قصدناه سابقا بإغلاق الحجاج للاتّفاق بين الطرفين. فمشى الحجاج بهدوء إلى نهاية دونما حاجة إلى الجدل والتفاوض و. . . فالمخاطَب في هذا الخطاب تبنى سلوكا مماثلا لسلوك المخاطِب.

لننتقل إلى نوع آخر من المبادلات هي المبادلة السلبية (Echange négative): وهي كذلك لأن المداخلة الثانية فيها أي(الجواب) تكون سلبية (نافية).

ونأخذ هذه الآيات من القرآن الكريم لتوضيح هذه المبادلة وفاعليتها الحجاجية:

قال ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦﴾﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾المائدة 116-117.

افتتحت هذه المحاورة بمساءلة عيسى عليه السلام، فعلى الرغم من علم الله بأنّ عيسى-عليه السلام- لم يقل ذلك؛ ولكن أُريد إعلان كذب من كفر من النصارى، فألقى إليه الاستفهام تعريضا بالإرهاب والوعيد، وإذا تنصّل منه عيسى فيُعلم أحبارهم الذين ابتدعوا هذا القول. (عاشور، 1984، صفحة 112_113).

وهذه من استراتيجيات الحجاج في القرآن، مستخدما في ذلك الاستفهام الإنكاري، واتضح ذللك في جواب عيسى –عليه السلام- إذ نفى أن يقول للناس ويبلّغهم غير ما جاء به من عند الله. فكان ﴿ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦﴾المائدة:116 سبحانك أي تنزيه الله، فالغاية تنزيه الله قبل تبرئه نفسه. (عاشور، 1984، صفحة 114).

فالجواب كان بالنفي بعد تقديس الله تعالى، إذ قال﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ ﴾اعتمادا على المبادلة السلبية طبعا؛ لأنها الأبلغ في هذا السياق؛ فقوله (ما يَكُونُ لِي) مبالغة في التبرئة، كما أن اللاّم في (يَكُونُ لِي) للاستحقاق؛ أي ما يوجد حقّ أن أقول. وهذا أبلَغُ من (لم أقلْه)؛ لأنّه نفى أن يوجد استحقاق ذلك القول (عاشور، 1984، صفحة 114)

فالنّفي أنعش الحوار في هذه المبادلة بالإضافة إلى الاستفهام الإنكاري؛ فقد رسم لنا هذا التنوع صورة واضحة عن التفاعل بين الله تعالى وعيسى عليه السلام، فبعد مساءلته لم يقاطعه حتى نهاية السورة ليعقب بوعده للصّادقين بالجنّة، ففُتح للرسول المجال ليتحدّث، لأنّ الاتّهام كبير مسّ (الألوهية)، فعلية أن يأتي بحجج تدعّم نفيه ذاك، وهذا ما تحدثنا عنه سابقا أي (التوسيع عبر الإنعاش)، فالمقام يستدعي هذا لتبرئة الذّمم.

ممَّا استدعى مبادلات سلبية أخرى تلتها كما في قوله (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ) فاستعمل النّفي المقترن بالاستثناء ليزيد من قيمة النّفي الإقناعية، فلم يبلّغ إلا ما أُمر به فقط لا غير (عبادة الله). فالقصر هو تأكيد بنفي وإثبات الحكم للموضوع ". (حسان، 1993، صفحة 503).

فقد اختلط الخطاب بالنّفي المقترن بالتّنزيه ليُختم بثناء الله على الصّادقين بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾سورة المائدة، الآية 119.

تفضح لنا هذه المبادلة التلاحم والاتفاق بين الله ورسوله لإحقاق الحق، وكذا المساندة والتفاعل الضّمني بينهما؛ فسعا معا لتحقيق نتيجة واحدة وهي (براءة الرسول) اعتمادا على المحاورة وما يتخلّلها من أساليب (استفهام، نفي. . .).

ولقد تحققت المفاوضة في هذه المحاورة بوصفها شرطا لحصول الاتفاق، وهي مفاوضة ميتا-تفاعلية (méta interactionnelle) وتتعلق هذه المفاوضة بحقوق وواجبات المشاركين في تفاعل حواري معين. (اللطيف، صفحة 119). والاستعانة بهذه المفاوضة في هذا الخطاب تظهر من خلال استعماله (مَا يَكُونُ لِي) و(لَيْسَ لِي)، فهي روابط للمفاوضة. فوظيفتها تتجاوز مجرّد الاتّفاق إلى مواصلة الحوار واتّساعه؛ فمساءلة الله لنبيّه عيسى -عليه السلام- في حدّ ذاتها تهدف إلى تبرئته وهذا(وجه الاتفاق)، ومن ثم فتح له الباب ليبرئ نفسه، بعد توظيف هذه العناصر اللغوية.

لنتناول الآن نموذجا آخر من سورة الذّاريات وندرس ما ورد فيها من مبادلات: قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾﴾الذاريات، الآية 24_28.

افتتحت المحاورة باستفهام وعرفنا سابقا أهميته في انتعاش المبادلة، ويظهر في قوله (هل أتاك) وهو خطاب موجّه للرسول والغرض منه تسليته على ما لقيه من تكذيب من قومه، وفي الوقت ذاته تعريض بالسامعين حين يبلّغهم بأنهم صائرون إلى مثل ذللك العذاب لاتّخاذ الأسباب. (عاشور، 1984، صفحة 357).

فهذا هو سبب استحضار قصّة إبراهيم عليه السلام، بالإضافة إلى هذا فإنّ المقصود من ذكر هذه القصّة هو التّوطئة لذكر ما حلّ بقوم لوط حين كذّبوا رسولهم. (عاشور، 1984، صفحة 356) والدليل قوله ﴿۞قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾ الذاريات، الآية 31.

هذه التوطئة ضرورية لفهم أهمّية المبادلة الواردة في هذا الخطاب ونوعها، وانسجامها مع بقيّة الخطاب؛ لأنّ الاهتمام بهذه العناصر من شأنه أنْ يحقّق أهمّ عنصر في المبادلة كما المحاورة وهو(التّفاعل).

ونركّز هاهنا على المبادلة الإقرارية في قوله﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ ﴾فالمبادلة هنا تكونّت من مداخلتين (فَقَالُواْ سَلٰما)، و(قَالَ سَلٰم) وظيفتها التّعبيرية هي التّحية، فالمخاطَب تبنّى سلوكا مماثلا لسلوك المخاطِب. فقالوا له (سلاما) أي نسلّم عليك، أمّا إبراهيم قال(سلامٌ) فنُصب الأول على المصدرية بتقدير(اذكر) بمعنى التّحية، وأما الثاني فرفعه على أنه مبتدأ خبره محذوف؛ أي (عليكم سلام). فسلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة. بحكم الجملة الاسمية إذ تفيد الدّيمومة والثّبات. (الشوكاني، 2007، صفحة 1407). ونتكّئ في كون ردّه أبلغ على تفسير "الشوكاني" في قوله: 'إنه أنكرهم لكونهم ابتدءوا بالسّلام، ولم يكن ذلك معهودا عند قومه".

فتحيّة الضّيوف خلقت تفاعلا بين الطّرفين؛ كونه رسولا من عند الله فلديه خلفية دينية مكّنته من فهم نوع التحية الملقاة عليه، فردّ بأحسن منها، لأنّ الكلام من مشكاة واحدة (السّلام)، لذا حدث التّجاوب انطلاقا من فكرة الموضع دائما، فعلى الرغم من عدم معرفته لهم لكن أسرع لإكرامهم، كمن يكرم صديقه أو أقربائه. . . فكلمة السّلام كانت كافية لتقريب المسافة بينهم، فكانت المبادلة الإقرارية مناسبة لفتح التّفاعل في هذا الخطاب. كما نلاحظ تناسبا آخر بين بداية هذه المحاورة (بالسلام) وختمها بقوله (وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيم). سورة الذّاريات، الآية 28.

فهناك انسجام بين المبادلة (سلاما) والغرض من الحضور، فبالإضافة إلى التفاعل فإن هذه المبادلة حسُن الافتتاح بها مراعاة للاتّساق والانسجام داخل الخطاب مراعاة لسياق الحال.

وهذا نموذج آخر للحوار من سورة مريم قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ سورة مريم ، الآية 42-48. وردت في هذه المحاورة عدّة مبادلات ساخنة تعكس قيمة الحوار واحتدامه بين النّبي إبراهيم-عليه السلام- وأبيه، والموضوع هو الصراع العقائدي بين رسول يدعو إلى عبادة الله، وأب متعنّت ينتصر لعبادة الأصنام، فقوّة الحوار من قوّة الموضوع والغرض. لذا نلاحظ تعدّد المبادلات وتنوّعها ومن ذلك:

المبادلة الاعتراضية في قوله: (إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقا نَّبِيًّا)، فقد اعترضت قوله تعالى: (وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ)، وقوله: (إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا) الملاحظ هو البدء بالثّناء قبل محاورة إبراهيم لأبيه، وهذا الاعتراض لغرض حجاجي؛ وهو إثبات صدق الرّسول وشرعية دعوته، ممّا يؤثّر إيجابيا في نفس المتلقّي، قبل بدء المحاورة وعرض الحوار.

وهذا ما ذهب إليه "محمد الطاهر بن عاشور" وذلك عند حديثه عن جملة (إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقا نَّبِيًّا)، فهي واقعة موقع التّعليل للاهتمام بذكره، في التّلاوة. والصدّيق بالتّشديد صيغة مبالغة من الاتّصاف، والصّدق هنا بمعنى بلوغ نهاية الصّفة في الموصوف بها، وتأكيد هذا الخبر بحرف التّوكيد، وبإقحام فعل الكون للاهتمام بتحقيقه زيادة في الثّناء عليه (عاشور، 1984، صفحة 112).

فقد حسن عرض هذه المبادلة في هذا الموضع من النّص، وكذا مناسبتها لسياق الكلام، فالاعتراض لغرض إقناعي بالدرجة الأولى. لما يفرضه اللفظ المُستعمَل من اهتمام بصدق النّبُوّة، ثم يبدأ التوسيع الحجاجي عن طريق التّوسيع الموضوعاتي: وهو التّوسيع الذي يتيح للبنيات التّابعة تطوير مكوّن موجه سابق، بحيث تفسّره أو تبرّره أو تفصّل فيه خادمة بذلك معناه (اللطيف، صفحة 117). وهذا ما يخلق تفاعلا بين المتحاورين فبعد إثبات صدق النّبي والإقرار بذلك يشرع بعدها في التّبرير والتّفسير، والهدف منها كذلك هو التمهيد للآتي، فالمبادلة الاعتراضية هذه خلقت توازنا وترابطا حجاجيا بين النص وغايته، بالإضافة إلى التفاعل التواصلي دائما.

كما تتابعت مجموعة من المبادلات الاعتراضية وهي:

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣ ﴾ م1

﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ ﴾ م2

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ م3

م= مبادلة

فالمبادلات الأصلية هي: (وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ)، وقوله (إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا) وقوله (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ)

أما ماعدا ذلك فهي مبادلات اعتراضية، وسبب تتابعها لأن المحاورة إذا طالت فهي تحتاج إلى كذا نوع من المبادلات.

نلاحظ أن جلّ المبادلات الإعتراضية تدعّم المبادلة الأصلية وهي: (يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا). كما تكررت في المبادلات الاعتراضية المختلفة التالية صيغة النّداء (يا أبت)، والغرض حسب ما ذهب إليه "محمد الطاهر بن عاشور" اقتضاه مقام استنزاله إلى قَبول الموعظة؛ لأنّها مقام إطناب (عاشور، 1984، صفحة 114).

فالاعتراض مع النداء للحاضر يؤدّي حتما إلى إنعاش المحاورة، ومن ثمة توسيع المحاجّة لا تضييقها، فاسترسال المبادلات الاعتراضية وتناميها داخل هذا الحوار خلق دينامية تفاعلية في الطرح والإقناع؛ لأنّ المخاطَب ناكر جاهل، عارف بأمور الدين (الوثنية) بالإضافة إلى كونه أبا، ممّا يستدعي الشّفقة والخوف عليه من عقاب الله؛ لذا طرق كلّ ما يحمل الأب على الاقتناع، ولا يكون مصيره مثل مصير ابن نوح. لذا كانت مشاركته أباه مشوبة بالإحسان في معاملته معه لآخر لحظة. (عاشور، 1984، صفحة 121).

والدليل قوله ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧﴾كما أن التتابع المشوب بالمشاركة كفيل بإحداث التوافق بين الأب وابنه بعد التفاعل طبعا. فقد بات جلّيا أثر المبادلة التواصلي والحجاجي بعد هذا الطرح. ونقف عند آخر مبادلة في هذا الحوار وهي المبادلة السلبية في قوله ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ الملاحظ مجددا هوا لفصل لا الوصل في المحاورة كما رأينا سابقا؛ (فقال) جاءت بدون عاطف، والاستفهام للإنكار إنكارا لتجافي إبراهيم عن عبادة آلهتهم، ولم يكتف الأب بهذا بل زاد من العناد حينما أضاف الآلهة إلى ضمير نفسه إضافة ولاية وانتساب. (عاشور، 1984، صفحة 118).

وهذا دليل على فشل الحوار أي (عدم الوصول) رغم طرْق جميع السّبل اللّغوية للإقناع، وخاصة بعد سعيه لنقل مشاعره تجاه أبيه (مشاعر الأبوّة)، وهذا الجانب التفاعلي طغى على مداخلات النبي إبراهيم مع أبيه من خلال استعطافه. لكن باءت تلك المحاولات بالفشل.

فقوله أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم توازي (ليس لك الحق في قول شيء من هذا النوع) فهذا الأمر ممنوع (وهو ذكر الآلهة بسوء) ويندرج هذا ضمن الوظيفة الميتا- تفاعلية -كما رأينا سابقا- فتجلّت هنا المسارات الحوارية الضرورية لإغلاق الحوار بعد المفاوضة طبعا.

خاتمة:

- المبادلة في القرآن تعكس تنوّعا في الأساليب مراعاة لمقتضى الحال.
- التّفاعل أهمّ شرط في المبادلة القرآنية كون النشاط الحجاجي يقوم على الادّعاء والاعتراض.
- وصل الخطاب بالتداولية ألبسه طابعا تفاعليا.
- من خصائص أسلوب المحاورة الفصل لا الوصل.
- أهمّية المبادلات في السّيرورة الحجاجية للخطاب، فهي التّي تتحكّم في غلق أو استمرار التّحاجج.
- الدّرس التّداولي نمّى مناهج درس الخطاب برمّته (المحاورة) باستحداث أدوات للتّحليل.
- التّناغم والائتلاف بين البنى اللغوية والحجاج.

الاتفاق يتحقق بالمفارضة من خلال أنواعها المختلفة.

- التّفاعل التّواصلي يتضمّن خصائص تداولية وتواصلية واستدلالية.

المقترحات التّوصيات:

أقترح عناوين أخرى مستلّة من عنوان هذا البحث منها: التفاعل في الخطاب الحواري القرآني مقاربة تداولية. أو المداخلة في القرآن الكريم مقاربة تداولية. كما أوصي بالآتي:

- الاطّلاع على جديد الدّرس اللّساني.
- خدمة أصحاب اللّغة للقرآن.
- الالتفات إلى دور أجزاء الحوار (المبادلة) في التّفاعل التّواصلي.

قائمة المراجع:

1_ أبو القاسم الزمخشري. (2009). تفسير الكشاف (الإصدار 3). بيروت: دار المعرفة.

2_ تمام حسان. (1993). البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني. القاهرة: عالم الكتب.

3_ حكيم بناني. (2010). الحجاج التبادل والتفاعل في ضوء فلسفة القيم. تأليف حافظ اسماعيل علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية تطبيقية في البلاغة الجديدة (المجلد 3، صفحة 135). الأردن: عالم الكتب الحديث.

4_ دومينيك مانغونو. (2008). المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب. (محمد يحياتن، المترجمون) الجزائر: منشورات الإختلاف.

5_ سامية الدريدي. (2011). الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه (الإصدار 2). الأردن: عالم الكتب الحديث.

6_عادل عبد اللطيف. (بلا تاريخ). بلاغة الإقناع في المناضرة.

7_عبد السلام عشير. (2007). الكفايات التواصلية اللغة وتقنيات التعبير (الإصدار 1). المغرب: الدار العالمية للكتاب.

8_ فيصل بن عبده. (2003). في الحوار أصوله - آدابه - صفات المحاور. الأسكندرية: دار الإيمان.

9 _ محمد الطاهر بن عاشور. (1984). التحرير والتنوير (المجلد 1). تونس: الدار التونسية للنشر.

10_محمد بن علي الشوكاني. (2007). فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علمي التفسير (الإصدار 4). لبنان: دار المعرفة.

11_محمد نظيف. (2016). الحوار وخصائص التفاعل التواصلي دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية. المغرب: إفريقيا الشرق.

12_ محمود شهاب الدين أبو الثناء الحسيني الألوسي. (1994). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (المجلدات 1-2). بيروت: دار الكتب العلمية.

13_ محي الدين الدرويش. (1992). إعراب القرآن وبيانه (الإصدار 3، المجلد 1). دمشق: دار اليمامة للنشر والتوزيع.

14 _ j moeschler. (1985). argumentation et conversation éléments pour une analyse pragmatique du discours. paris: hatier crédif.

□